محاولة في الكشف عن أمراضنا الفكرية و الاجتماعية "الحالة العراقية"... أنموذجا القـريبة" للحالة العربستانية "

د. علــي الـــوردي..... في الطبيعــة البشرية

تقديم: سـعـد البـزاز

الحـلـقـة الثـانيـة

و لكي يكون هناك مجتمع مدني ، لا بد أولا من الانتقال من الآصرة المعنوية المجردة التي يمثلها الانتماء القبلي و حسب ... إلى الآصرة النفعية و المادية التي يمثلها التكامل و التضامن الاجتماعي الذي تنتجه المدينة .. حاضنة كل العصبيات و حاويتها القادرة على إذابتها و تحييدها تدريجيا .. فالآصرة المعنوية قد تدع المجموع متشبثا بأذيال الوهم ، سواء كان وهم القوة ، أم وهم النصر ، أم وهم التفوق ، أم وهم النقاء ... في حين أن الآصرة المادية و نتائجها النفعية و المصلحية تفرض ، نظاما كاملا للحياة ، تتأسس فيه علاقات إنتاج تتجاوز النمط البدائي الذي يخرج من الريف إلى ما هو مؤهل لتكوين مجتمع مركب تتقابل فيه المنافع و الحاجات ، و الواجبات و الحقوق ، و هو أمر يحفز الدافع الفردي في الأداء ، و يخلق مقاسات للتفوق تتناسب مع الكفاءة و نوع الخدمة العامة و درجتها فيُنصف الذكاء و الجهد بدلا من أن يجري المنح المجاني للمراتب على أساس النسب و النقاء القبلي المزعوم .

* * *

ثمة قيم يقاومها الوردي في المدينة العراقية ، لكن هذه القيم كانت امتدادا لعصبيات شاملة تحدرت إلى المدن من بعض حافات العراق و أريافه ، و استنهضت المتخلف من أخلاقيات المدن لتشكل في روافدها المختلفة عصبيات قبلية و طائفية و مهنية ، سواء انحازت إلى حي سكني ضد حي آخر ، أو جاءت على شكل تبعية بلهاء لأحد الشقاوات ضد أشقياء آخرين يستجلب العداء بينهما صدامات دموية كانت تتخذ مكانا لها بين بيوت الآمنين و على أسطح منازلهم ، بل حتى أن هذا التعصب كان يظهر أحيانا في حزمة من المهن التي تنتقص من مهن أخرى يمارسها أفراد آخرون على الرغم من حاجة المجتمع إليها و حيوية مكانتها في حياته ..

و من حيثما استدار محرضو التنوير في العراق ، يجدون أنفسهم في صدام مع الجميع ، إذّ أن التعصب لقبيلة أو طائفة أو مدينة أو أشخاص أو أحياء أو مهن ، موجود في المعلن و المستور من سلوك جميع الناس ، ولا تعدو صيحات المنورين غير محاولة لكبح جماح التعصب دون الجرأة على زعم إمكانية إنتزاعة ..

فالأولوية في المجتمع العراقي ، قبل ثلاثة أرباع القرن عندما تأسست دولته الحديثة ، كما هي اليوم أيضا ، هي في إيجاد مستوى من التراضي بين شرائح اجتماعية تحفزها أنماط متباينة من التعصب .

أما المعضلة الأكبر التي تهدد البنية الاجتماعية فهي تآكل دور (المدينة) في مواجهة زحف (الريف)، و هي حالة تجاوزت آثارها المشكلات الاجتماعية و اتساع العصبيات و تغلغل قيم متخلفة في بنية المدن ، إلى ما هو أخطر من ذلك ، عندما أستحوذ المتعصبون للمتخلف من قيم الريف و المتمسكون بالبدائي من دوافعهم الغريزية ، بالحياة السياسية للبلاد ... و ربما منع الحرج الكثيرين من التعامل مع هذه الظاهرة و محاولة تحليلها و تفسيرها لما تثيره من حساسيات كثيرة و ما تلقاه من قصور في التفهم و القبول ..

* * *

وضع الوردي متخلفي الريف الذين غزوا المدن و شقاوات المدن نفسها على خط واحد من التحدر في السلوك الذي يجنح إلى العنف و يمتنع عن الخضوع للسلم الاجتماعي ، و المثير في تاريخ العراق أن الحركات الثورية فيه دفعت إلى الخط الأمامي فيها شرائح قادمة من ذينك المصدرين الاجتماعيين : فجاء المتر يف الغازي للمدينة و جاء شقاوات المدن ، و احتمى الخط الأمامي في هذه الحركات خلف سحب ثقيلة تراكمت بفعل غياب الحريات داخل تنظيماتها ، سواء كانت قد وصلت إلى الحكم أم التي لم تستطع الوصول إليه ، و لذلك تقاسمت هذه الحركات إلى الحكم أم التي لم تستطع الوصول إليه ، و لذلك تقاسمت هذه الحركات صفات مشتركة مع كل ما كان بينها من اختلافات سياسية و فكرية : فغياب الديمقراطية في حياتها الداخلية و الاحتماء بالسرية و الكتمان قد وفر غطاء للفساد الإداري و الشخصي و للعجز الفكري و تدني الوعي ، كما كان غطاءً للقسوة في الحياة الداخلية لهذه الحركات و لتبرير استخدام العنف ضد بعضها البعض ، أو ضد أعضاء التنظيمات نفسها في حالات الانشقاق و الخلاف الداخلي .

حتى ليبدو أن ثمة ملامح مشتركة لدى السياسيين من الجهاز الحكومي و بعض فصائل معارضته ، فيخال لمن يتطلع في وجوه المشاركين في واحد من اجتماعات المعارضة العراقية (عقد في إحدى العواصم العربية) أن أصحابها يمقتون الآخرين ... أي آخرين كانوا ، حيث يغيب لدى الفريقين الإحساس بالجمال و الحرية و العدل ، و يغلب التحزب و تتسيد العصبية ، فقد جاء الفريقان من بيئة التخلف نفسها ، يحملون الكراهية للحواضر و قيمها الوسط ، انه مرأى واحد ، عندما تنظر في ملامح المشاركين في احد الاجتماعات الحكومية ، حيث تصادفك وجوه انتزعت منها حساسية استشعار روح الناس من المقهورين و المضطهدين ، فيستنسخ المشهد على الطرف المقابل ... انعدام الإحساس بالآخر ... حتى لا يصدف أن يبتسم احد في وجه الآخر أينما كان اللقاء ... في صف الحكم .. أم في بعض صفوف المعارضة .

يحدث هذا في وقت كان يُفترض فيه أنْ يخرج السياسيون من أرحام مدارس فكرية مختلفة ، و أن يجدوا أنفسهم امتدادا لعلماء الاجتماع و فلاسفة التنوير في قرن النهضة الذي افتتحه دعاة التحرر من السيطرات العثمانية و البريطانية أوائل القرن العشرين ... لقد ميز هذا التواصل بين السياسي و الاجتماعي الكثير من مراحل التاريخ السياسي في العالم ، فكمْ من سياسي تمخض عن الفكر الاجتماعي و السياسي لابن خلدون ، و كمْ من سياسي خرج من مدرسة ميكافيلي و غاريبالدي ...؟ فلماذا لم يخرج السياسيون في العراق من كنف علي الوردي و ساطع ألحصري و فكرهما التنويري المحرض ...؟.. و لماذا لا يعترف السياسيون بحاجتهم إلى اقتفاء أثر المفكرين ...؟ و لماذا يتجاهلون شجاعة الفكر .. و لا يعرفون غير أحابيل السياسة و مكرها و ظلمها و تخفيها في الظلام ..؟

عندما لا تجد أبناء للمفكرين في السياسة العراقية ، فإن هذه السياسة تبدو مقطوعة الرحم ، و آنذاك سيتاح تفسير تناقضاتها و اضطرابها و تقاطعها مع المصالح العليا للمجتمع في أمنه ووحدته و روح تراضيه و مسالمته مع ذاته و الآخرين .. و عندئذٍ ستبدو معضلة العراق هي في أن نظامه السياسي الحكومي و المعارض ، على مخاض الشوارع ، لا من حاضنات المفكرين ، فبدا مشوها و سار تلقائيا إلى الجمود و التفتت .

و قد يقول قائل ، أن وضع العراق من هذه الناحية ، ربما كان مماثلا لسواه في بلدان أخرى ، أو أنه ليس الأسوأ منها ، و هو قول راجح في شكلية المقارنة ، غير أن عراقة هذا البلد و عمق تراكمه الحضاري و جنوح العراقي إلى عدم الرضا ووجود نخبة فكرية باسلة و مشاكسة فيه يجعل من المستحيل قبول الانهيار ألقيمي الذي أصاب المجتمع و فتت بنيته ، و في هذه الحالة لا تقاس رفعة العراق على درجة أداء سياسييه و قسوتهم ... و جهلهم ... بل على مستوى ما يخلفه مفكروه الشجعان من إرث للعقل الساخط و غير المطمئن إلى صناعة السياسة و آثامها ....

لقد مات الوردي خائفا من عقاب السياسيين و زاهدا في دنياه و وحيدا مجردا من صولجانات الحكم و رضاه ، بعد أن أهمله صناع السياسة المستحكمون بالمال العام ، فجاء يتلمس العناية من الملك حسين في الأردن الذي احتضنه بعد أن نخر المرض في أحشائه و مثانته ... حتى غدت هذه النهاية في حياة الوردي ، شاهدا على ظلامية عصر لم يقم وزنا لأشجع مفكريه الاجتماعيين .

* * *

الدكتـــور علـــي الـــوردي

حـــوارات

في الطبيعـــة البشـــريـــة

العــراق ... أولا

نــزاع هابيل و قابيل صـراع بين البداوة و الحضارة

س : كيف و متى ظهرت الحضارة على وجه الأرض ؟ و لماذا ظل البشر طيلة مئات الألوف من السنين بلا حضارة ، ثم ظهرت الحضارة فجأة قبل ستة آلاف سنة تقريبا ؟؟

ج : هذا السؤال ذو أهمية علمية كبيرة . و طالما تناقش حوله الباحثون ، فالمعروف أن البشر ظهروا على وجه هذه الأرض قبل مليون سنة أو أكثر ، ولكنهم عاشرا هذه المدة كلها تقريبا بلا حضارة ، قم ظهرت الحضارة قبل ستة آلاف سنة تقريبا ، فلماذا ؟

* و مما يلفت النظر أن الحضارة كان أول ظهورها في " العراق .. و مصر " ثم صارت تظهر بعدئذٍ في بعض الأقطار الأخرى شيئا فشيئا ، و السؤال الذي يواجهنا هنا : لماذا كان العراق و مصر مهد أول حضارة على وجه الأرض ؟ و ما هي الظروف التي أدت إلى ذلك ؟

* حاول بعض الباحثين في القرن الماضي أن يجيبوا عن هذا السؤال بقولهم أن هذين القطرين اتصفا بوفرة المياه و خصوبة الأرض و اعتدال المناخ ، فنشأت فيهما جراء ذلك الزراعة التي هي أساس الحضارة .

* و الواقع أن هذا الجواب بالرغم من وجاهته الظاهرة لا يحل لنا المشكلة حلا تاما ، فنحن نعلم أن هناك في أنحاء العالم أقطار عديدة كالعراق و مصر تتصف بوفرة المياه و خصوبة الأرض و اعتدال المناخ ، فلماذا لم تنشأ الزراعة و الحضارة فيها على نحو ما ظهرت في العراق ؟

* للمؤرخ المعروف ارنولد توينبي نظرية في هذا الموضوع يمكن اعتبارها أفضل جواب للسؤال آنف الذكر . و فحوى هذه النظرية أن الامتداد الصحراوي الكبير الموجود الآن بين المحيط الأطلسي و الخليج العربي لم يكن موجودا قبل عشرة آلاف سنة ، بل كان منطقة غزيرة المطر و مليئة بالأشجار و الحيوانات و كان سكانها يعيشون على صيد الحيوانات و التقاط الأثمار ، ولم يكن احتراف الزراعة أو رعي الأنعام قد ظهر بينهم .

* كان مناخ هذه المنطقة قبل عشرة آلاف سنة يشبه مناخ أوربا في أيامنا و سبب ذلك أنها كانت حينذاك تعيش في ما يسمي " العصر الجليدي الرابع " ، ففي ذلك العصر كان الجليد القطبي يغطي أوربا ، أما المنطقة التي تقع إلى الجنوب منها فكانت غزيرة المطر ، و لما بدأ الغطاء الجليدي بالانسحاب نحو الشمال منذ عشرة آلاف سنة ، اخذ المطر يتحول إلى أوربا بينما صارت المنطقة التي تقع إلى الجنوب منها تميل إلى الجفاف شيئا فشيئا .

ستتبع في الحلقة القادمة

2003 – 10 – 18